إبليس بين ملتون وعنترة

مَنْ منّا لا يعرف إبليس! إن المثل العربي يقول: فلان أشهر من نار على علم. أما إبليس، فهو النار نفسها وقد اعتلى قمّة الجبل الأشمّ ليتوهّج هناك، وإبليس كما نعرف حديث الصغار والكبار؛ فالصغار إن فقدوا شيئاً أخذوا يترنّمون وينشدون قائلين:

يا إبليس
فُكّ الكيس
مش حقي
حق الناس
وجع الراس

ويستمرّون في ترنيمتهم تلك ليرقّ لهم قلب إبليس، فيفتح لهم كيسه الكبير جداً الذي سقطت فيه ممتلكات أطفال عديدين، وفي دهور متباعدة، منذ أن

أصبح للأطفال ممتلكات، ومنذ أن أصبحت تضيع. ووجد الأطفال أن كيس إبليس هذا بحرٌ عميق إذا دخله شيء لم يخرج منه. والأطفال قليلاً ما تكون لديهم القطع النقدية التي وكأنما عملت بحجم صغير بغرض تسهيل مهمة إبليس لابتلاعها في كيسه الرملي العميق. ويندب الأطفال حظّهم ثم يُنشدون هذه الأغنية لإبليس لكي يخرج ما في كيسه.

هذا ما كان من أمر الصغار مع إبليس. أما الكبار، فمعرفتهم بإبليس أعمق من ذلك وأخصب وأقرب. إنّ بينهم وبين إبليس علاقة حميمة، ومودّة قوية بعيدة عن الاستجداء الذي يترنّم به الأطفال؛ فالكبار يلعنون إبليس في علانيتهم، ويخصّونه بكثير من الثقة في سريرتهم، ويجعلونه يصحبهم في مغامراتهم. ثم ما يلبثون أن يلعنوه أعظم اللّعنات، ويلوموه أعنف اللّوم لأنه غرّر بهم وخدعهم وضلّلهم وسار بهم في الغواية كل سير.

وبالرغم من خوف الناس من إبليس وكراهيتهم له أحياناً، فإنّ هناك مِنَ الناس مَنْ كان يعجب بإبليس، ويعترف لإبليس بكثير من المزايا الخلقية التي لا يعترف بها كثير من الناس لإبليس. ولعلّ الشاعر الإنجليزي جون ملتون هو مِنْ أوائل الناس الذين قدروا إبليس

تقديراً سامياً، وقد صوّر لنا شخصية إبليس بصورة بطولية؛ إذ جعل منه محارباً فذًّا، وقائداً ممتازاً، وشخصية تتحلّى بشجاعة نادرة.

وملتون الشاعر الإنجليزي وُلد في سنة ١٦٠٨ ميلادية، وعاش كغيره من الأطفال حيث التحق بالمدارس ثم جامعة كيمبردج، ولكنه لم يحرز انتصارات علمية تذكر في ذلك الخضمّ. وكان يكره السلطة والطغيان والدكتاتورية التي كان ينعم بها غيره، لكنه كان يستسيغها لنفسه في محيطه الضيق حيث كان يفرض سلطانه الغاشم على زوجاته وبناته. واشترك في الثورة الإنجليزية ضد الملك تشارلز الأوّل، وأصبح من أعوان كروميل الذي كان قائداً للثورة ضد الملك. ولكن ما لبثت الثورة أن انهارت بعد موت كروميل وأصبح ملتون مختفياً عن أنظار الملك، ثم ألقي عليه القبض، وسجن، ثم أطلق سراحه وبقي طليقاً غير مقيّد بشيءٍ إلا فقدانه لبصره، وأخذ في هذا الوقت ينظم قصيدته الرائعة «الفردوس المفقود».

في هذه القصيدة تحدث ملتون كثيراً عن بطل القصة الشعرية ألا وهو إبليس. وجعل يرسم صورة شخصية إبليس ببراعة وقوة وحذق حتى أصبحت حية واضحة المعالم ـ ربما أعجب بها إبليس نفسه ـ.

يقف إبليس بين أنصاره من الجن وهو يثير فيهم الحماس لكي يقفوا صفاً واحداً بالرغم من كل شيء، وكان يقول لهم وهو يخدعهم بألفاظه:

وإن كنا خسرنا المعركة

إلا أننا لم نخسر كل شيء. فهناك العزيمة التي لا تقهر.

والمثابرة على الأخذ بالثأر.

والكراهية التي لا تفنى.

والشجاعة التي لا تقهر أو تستسلم.

وكل ما لا يمكن أن ينهزم.

إنه من الوضاعة والجبن

أن ينحني المرء ويطلب الرأفة

وهو يجثو على ركبتيه

يجب أن تثار الحرب الشعواء بالقوة

وبالخديعة حتى نهاية الأبد

غير خاضعين أو جانحين إلى مصالحة عدونا الأعظم

الذي يحتفل الآن بتغلبه علينا.

obeikandl.com

ويمضي إبليس ـ الشيطان الأكبر ـ في تحريض أبناء جنسه من الأبالسة الصغار لكي يستمروا في كفاحهم الطويل المرير بغية البقاء في الجنة وعدم الخروج منها، والكفاح من أجل العودة إليها عندما خسروا معاركهم الأولى. ويودع إبليس الجنة التي كان فيها معززاً مكرماً ويقول:

وداعاً أيتها المروج السعيدة
حيث الحبور الأبدي في كل مكان،
ومرحباً بك يا مصائب.
أيتها الدنيا الملتهبة،
أيها الجحيم القاسي،
إليك هذا النزيل الجديد الذي يأتي إليك
بفكر لا يغيره الزمان أو المكان،
فالفكر هو السيد المطاع
وهو الذي يستطيع أن يجعل
من الجنة جحيما
ومن الجحيم جنات.
وهنا سنحكم ونحن في أمان.

obeikandl.com

وفي رأيي:

إن الحُكْم يستحق المغامرة حتى ولو كان في جهنم،

وخير لنا أن نحكم في جهنم ونحن أعزة

من أن نخدم في جنة ونحن أذلة.

هذه الأسطر الأخيرة أشبه ما يكون بعنترة وهو يتحدث عن عزة النفس التي لا يرضى عنها بديلاً، وقد صاغها في أبيات يقول فيها:

لا تسقني ماءَ الحياةِ بذلّة

بل فاسقني بالعز كأس الحنظلِ

ماء الحياةِ بذلة كجهنم

وجهنم بالعز أطيبُ منزلِ

فكل من عنترة وإبليس ملتون يتحدث بنفس الكلمات، ويفكر بنفس الأسلوب. فكلاهما يريد أن يعيش عزيزاً في جهنم بدلاً من أن يعيش ذليلاً في جنة. والذي يثير التساؤل هو: هل هذا ما يمكن أن نسميه توارد خواطر بين الشاعر السوداني العربي عنترة الذي ربما عاش في القرن السادس للميلاد وبين ملتون الشاعر الإنجليزي الذي عاش في القرن السابع عشر. فهل يا

ترى شيطان عنترة في الشعر هو نفس شيطان ملتون. وهل سافر من الجزيرة العربية إلى الجزر البريطانية ليوحي لملتون بهذه الكلمات ـ نفس الكلمات التي قالها عنترة بالعربية ونطق بها ملتون بالإنجليزية، وكان كل من الشاعرين قد ملك ناصية البيان في التعبير عن هذا المعنى بلغته.

وكان عنترة يذكر الأبالسة بخير على أنهم رجال حرب شجعان لا يخذلون من يحارب معهم. وبلغ إعجابه بهم حداً صور له أنهم هم الذين يحاربون عندما تستعر نار الوغى، أما في السلم فإن أصحابه هم الرجال:

لا أبعد الله عن عيني غطارفةً
إنساً إذا نزلوا جِناً إذا ركبوا
أسودُ غابٍ ولكن لا نيوب لهم
إلا الأسنةُ والهنديةُ القُضُبُ

ولذلك فهو كان يعتمد عليهم في حروبه اعتماد إبليس عليهم في المعارك التي خاضها والتي ينوي أن يخوضها. وهذا يعني في رأي عنترة أن فارسنا يثق في مقدرة الجن على القتال حتى النصر، وذلك ما كان ينادي به إبليس عندما أخرج من الجنة.

كان عنترة يرى الحرب جحيماً يصطلى، ونارا شديدة اللهب، وأنه كان يحيا فيها مع غيره من المحاربين ـ تماماً كما كان ملتون يفكر بعقل إبليس وهو في جهنم بعد أن أخرج من الجنة. وكلمات الرجلين في هذه التجربة تكاد تكون متماثلة لا تبديل فيها. فعنترة على حد قوله:

خُلقتُ للحرب أحميها إذا بردت
وأصطلي نارها في شدة اللهب

وقد سمعنا هذه الألفاظ والمعاني في كلمات إبليس التي أوحى بها الجن إلى ملتون.

أما العزة التي وردت في كلمات إبليس التي قرأناها هنا، وذلك التوكيد على أهميتها، وعلى أنها عامل نفساني يغمر شغاف قلب إبليس بعد أن استوطن في قلب عنترة من قبل، فإنها أيضاً من أوضح لوازم عنترة. وكان يذكر دائماً على أنه لا يستطيع أن يعيش إلا إذا حفت به مظاهر العزة وكان يقول بأنه يستخلص العزة والكرامة بحد سيفه وسنان رمحه، ولا يرضى بهوان أبداً.

دعوني في القتال أمتْ عزيزا
فموت العز خير من حياتي

وكان عنترة يأنف أن يطلب شيئاً من أحد. وكانت حياته في أول أمرها قاسية حين كان عبداً أريد له الخمول والمذلة، ولكنه أراد لنفسه العزة وبعد الصيت. وكانت تلك الذكريات تعاوده من وقت لآخر. وسر من نفسه غاية السرور، وأكبرها غاية الإكبار لأنه لم يهن أو يضعف أو يتذلل منذ نعومة أظفاره. ولذلك فإنه كان حين يتحدث عن الكرامة والعزة يتحدث حديث العزيز الكريم، وكان مخلصاً في قوله:

ولقد أبيت على الطوى وأظله
حتى أنال به كريم المأكل

وكان هذا البيت خير ما يعين الإنسان في الشدة إذا قست عليه الأيام، وعضه الدهر بأنيابه، فهو معنى من المعاني السامية التي تشد من أزر المستشهد بها في المركب الصعب.

وكثيراً ما كان عنترة يتغنى بهذه الفترة التي عشقها منذ أن كان عبداً في صباه، وهي التي قادته إلى الحرية بعد ذلك ثم إلى البطولة حتى أضحى ذكره على كل لسان، وحتى شعر بعزته كل من قرأ الشعر العربي.